

## التكامل المعرفي بين مواد اللغة العربية

د/رفاس سمير  
جامعة سيدي بلعباس

### المعرفة

ترتبط المعرفة بالفهم والإدراك، الذي يتأتى من خلال التأمل في طبيعة الأشياء، وتقصي الحقائق، بحثا عن الاكتشاف والتعلم والتطور. ومن هنا كانت المعرفة في مفهومها العام هي، مجموع الخبرات والمهارات المكتسبة من خلال التجربة أو التعليم. والمعرفة أوسع وأشمل من العلم؛ لأنها تتضمن معارف علمية وغير علمية، بينما العلم فهو ضرب من المعرفة المنظمة التي تستهدف الكشف عن المجهول، فتتطلب له، وتقننه وتنقله من التجريد إلى التجريب. والمعرفة أنواع؛ حسية، فلسفية وتأملية، علمية تجريبية. وغالبا ما ترتبط المعرفة بالتعليم، المعلومات، الاتصال والتنمية. وقد فرق العلماء بين المعرفة والعلم وحددوا بأنها تتعلق بذات الشيء، والعلم يتعلق بأحواله، فتقول: عرفت أباك، وعلمته صالحا عالما...، فهي حضور صورة الشيء ومثاله العلمي في النفس. أما العلم، فهو حضور أحواله وصفاته ونسبتها إليها، فالمعرفة تشبه التصور، والعلم يشبه التصديق. وكلاهما يسعى إلى إحداث التكامل في نقل المعارف وتطوير المعلومات وتسهيل التواصل والاتصال بين شتى العلوم.

### التكامل المعرفي

لهذا المصطلح إحياءات ودلالات، ومنطلقات ومرجعيات، وخلفيات وغايات، ومما يوحي به "التكامل المعرفي"، الموسوعية في المعارف وشمولية الثقافة؛ والإلمام بكثير من العلوم.

وقد تحدث العلماء قديما عن ضرورة التكامل بين العلم والعمل، كما التفتوا أيضا إلى ضرورة تكامل البحوث العلمية في جانبيها، النظري والتطبيقي. ثم ظهرت من بعد ذلك، في القرن العشرين حاجة الفيزياء إلى الرياضيات، وحاجة البيولوجيا إلى الكيمياء، ثم كان لظهور العلوم البينية تأكيد على ضرورة الإفادة من تقدم العلوم على بعضها البعض، فيحدث التلاقح والتعاون والتداخل فيما بينها، وقد شملت فكرة التكامل ثنائية العلم والدين أيضا، كما اعتمد أيضا في مجال التربية والتعليم، كواحد من المداخل المهمة في بناء المناهج التعليمية.

ومع ذلك فإن التكامل بين العلوم المختلفة لا يعني أنها جميعها في مرتبة واحدة من حيث علاقتها بالحقيقة أو من حيث أهميتها وأولويتها. فتكامل أعضاء الجسم البشري في أدائها لوظائفها لا تجعل أطراف الجسم في أهمية القلب أو الدماغ مثلا.

التكامل المعرفي عملية فكرية منظمة، وموجهة نحو هدف معين وغاية مرجوة، ومن ثمة فإنها ذات بعدين؛ واحد إنتاجي وآخر استهلاكي. أما الإنتاجي، فهو صورة من صور الإبداع الفكري الذي يحتاج إلى قدرات خاصة لفهم النص، في حين يتعلق الاستهلاكي بتوظيف الأبنية الفكرية التي يقوم عليها التكامل. وهي معطيات. ننطلق منها في فهم أسيقة النص وأبنيته.

وتتجلى أهمية التكامل في المجال العلمي العملي ضمن أربعة خطوات؛ أولها الاكتشاف، وثانيها التطبيق، والثالث هو التعليم الذي ينقل المعرفة ويورثها من جيل إلى جيل، لنصل إلى الرابع وهو التكامل بوصفه نشاطا يتم فيه دمج التركيب بالمعنى وهو المجال الذي يعطي للنص قيمته وأهميته ومعانيه ودلالاته.

لقد أصبح فعل الممارسة البحثية في إطار وحدة العلوم وتكاملها، من الصعوبة بمكان، وذلك لعدم وضع ورسم نماذج للبحث العلمي ضمن هذا التصور. كما أن تسخير الجهود لتكامل العلوم الطبيعية مع العلوم الإنسانية والاجتماعية على أساس إبراز وحدة التكامل بينها في برامج التعليم، سوف يرغم الجامعات على إعادة تصميم برامجها، كما أن بعض التخصصات وبعض الحقول المعرفية، سوف تقفز إلى دائرة تصميم برامج المناهج الدراسية.

ومن كل ما سبق حول مفهوم التكامل نقول: التكامل، ثلاثة أنواع، وهي: داخلي وخارجي ومتكامل. وينحصر الداخلي في قوانين اللغة وقواعدها وضوابطها، المختصة بها. بينما يقوم الخارجي، على توظيف مواد غير لغوية كالرياضيات والفيزياء والعلوم التجريبية والنفسية والفلسفية والاجتماعية وغيرها، قياما متكاملا متكافئا، في خدمة النص. ويبقى بعد هذا التكامل المتكامل، وهو الاستعانة بمختلف المواد غير اللغوية، كالتي ذكرناها يضاف إليها مختلف النشاطات العلمية والتجارب المخبرية، ثم مختلف القوانين والقواعد في مختلف المجالات، مضافة جميعها إلى ضوابط اللغة وقوانينها، حيث يدمج الجميع في خدمة النص اللغوي وهذا هو التكامل المتكامل.

وبعد تجميع المواد وتنظيمها وتنسيقها تصبح جاهزة متكاملة تصب في مجرى واحد هو النص. ولا يغيب عنا، أن المواد المجمعة مستقاة كلها من النص، لتعود إليه، وتكون العملية دقيقة محكمة حين يخدم النص نفسه بنفسه. وإذا كان لغويا فستكون العملية أكثر دقة وصعوبة، حين يكون البحث باللغة، في اللغة، عن اللغة، إلى هيكل لغوي كامل متكامل هو النص اللغوي؛ (لأن اللغة ليست مجرد أصوات وصيغ وجمل ودلالات، بل هي أداة لممارسة الفعل على المتلقي أيضا، على أساس أن النص اللغوي في جملته إنما هو النص في موقف)<sup>1</sup>، فالنصوص . في رأي سوينسكي إبداعات لغوية يستدعيها واقع معين أو وجهة نظر فعلية معينة. و...) تتمثل الغاية من عملية التفسير في حل المشكلة المعرفية للفهم، والعملية التفسيرية وحدة لن نفهمها إلا بالإحالة إلى اللغة، واللغة - على حد تعبير هببوت - ترينا أن الكلام الذي يفرضه من يعيشون معنا ليس موضوعا ماديا جاهزا لأن يستقبل بواسطتنا، إنه الأصل أو السبب المادي لحافز يوجهنا إلى أن نعيد ترجمة ما أدركناه، وأن نبني من جديد معناه من الداخل)<sup>2</sup>. ومن هنا تبدأ الدائرة تضيق والحلقة تنغلق والتركيب يتوسع لينتهي الكل إلى النص. وتظهر صفة التكامل المعرفي في ثلاثة مستويات: تكامل المصادر، وتكامل الأدوات، وتكامل المصادر والأدوات. وهو ما سنقف عنده في علاقته بتلقي النص.

#### النص

النص هو سلسلة مبنية من التعبيرات اللغوية التي تشكل كلا متكاملًا. والخطاب فعل بنائي يتجلى في السلوك اللغوي في حين أن الخطاب هو النص اللغوي بعد استعماله، وهو وسيلة المتخاطبين في توصيل الغرض الإبلاغي من المخاطب إلى المخاطب، ويتسم بأنه كتلة

بنوية واحدة متماسكة الأجزاء، وأية محاولة لفصل أجزائه بعضها عن بعض تؤدي إلى تغييره وإعادة بنائه. وعليه، يكون النص معبرا عما هو مكتوب أما الخطاب فهو منطوق ينتقل من المرسل إلى المستقبل المتلقي. وهذا لا ينفي عن النص دوره في تفعيل عملية الاتصال، فما كان مكتوبا نطقناه أولا ثم كتبناه، وما كتبناه قرأناه ونطقناه ثانية، في حركة دائرية مغلقة ومتعاقبة.

و(النص كذلك علاقة متشابكة من عناصر الاتصال اللغوية يتحد فيها السياق مع الشفرة لتكوين الرسالة، ويتلاقى الباعث مع المتلقي في تحريك الحياة في هذه الرسالة وبعثها من جديد في تفسيرها واستقبالها)<sup>3</sup> وتحليلها بواسطة الفكر الذي يتخذ اللغة وسيلته في ذلك. فأساس اللغة فعل نتج من خلاله التعبير عن مضمون الفكر بواسطة علامات ورموز متفق عليها من طرف المتخاطبين. لذلك، فإن المفاهيم التي استخدمتها نظريات التواصل في مختلف الحقول مثل الرسالة، المرسل، المتلقي، القناة، الشفرة أو السن، تعتبر ذات فعالية إجرائية لفهم العمليات التواصلية في تنوعها. وللمخاطب دور فعال في عملية التخاطب، يتجلى في عملية التحليل التي يقوم بها أثناء تلقيه الخطاب؛ أي تحليل الرسالة اللغوية، فيكون عمله هذا مكمل لعملية التركيب التي قام بها المخاطب. وعندما يتلقى القارئ النص، فإنه يتعامل معه معاملة خاصة في محاولة منه لفهمه واستيعابه، وفك رموزه وشفراته، مستعينا في ذلك بثقافته ومكتسباته القبلية، وتجاربه الخاصة.

#### في تلقي النص

يتفق معظم الدارسين المهتمين بمقاربة النصوص وتحليلها على أن الدراسة النسقية للنصوص لا تستطيع أن تكون سوى نظام متداخل

العلوم. فالنصوص لا تملك فقط بنى قاعدية، ولكنها تملك أيضا بنى كبرى، كالبنى الأسلوبية والبلاغية التي هي في عدد من مستويات النص ومسؤولة عن التغير. وهنا يظهر تكامل الداخلى مع الخارجى في النص، إذ أن المتلقى لا يكتفى بدراسة البنيات الأساسية فقط؛ لأنها لا تعطى للنص المعنى الكلى أو الدلالة المكتملة وإنما تقف عند حدود الدلالة المعجمية فقط، لذا يجد نفسه مضطرا إلى تطعيم دراسته بمستويات أخرى تفوق المستويات الأربع التي يبنى عليها النص.

فليس المقصود فقط هو فهم النص وتحليله لذاته، ولكن المقصود قبل كل شيء هو فهم مختلف وظائف النص، وتحليلها في هذه السياقات. كما أن المادة الفعلية التي تقدمها تراكيب اللغة ليست كافية لتقديم تفسيرات دقيقة للنصوص، وعلى اللغوي المفسر أن يستعين بعناصر أخرى، تختلف الاتجاهات في وصفها وإن اتفقت على أنها ترجع أساسا إلى تصورات غير لغوية (ما وراء اللغة)، من علوم أخرى متداخلة مع علم لغة النص تداخلا شديدا.

إن الدراسات الحديثة الآن لا تسعى إلى دراسة الأنظمة اللغوية فقط، وإنما تبحث في علاقتها ببعضها وفي كيفية استخدامها وتوظيفها داخل النص اللغوي. (ويرى هارتمن أنه عند معالجة النص ينبغي تحليل الأسس الحاملة للمعلومات وتأثيراتها الداخلية، أي داخل النص والانتقال من مضامين خارج النص، غير نصية إلى معلومات الأساس (يعني قضايا الموقف والسياق)، ويرى أيضا ضرورة فصل وحدات تحليلية نصية وتحديدها بالاستعانة بعلوم أخرى)<sup>4</sup>. وهذا وجه من أوجه التكامل بين العلوم اللغوية وغير اللغوية.

يرتكز النص عدة اعتبارات تجعله يتجاوز حد الجملة الجزئي، منها البحث عن ائتلاف المعنى أيضا بين التراكيب الأساسية داخل

الاستعمالات اللغوية، والإشارة إلى عملية الفهم والتأثير، والكشف عن الروابط الداخلية في النص، والروابط الخارجية خارج النص، والربط بين التراكيب وعوامل حقيقة وعوامل محتملة، وغير ذلك من الاعتبارات، منها، أن النص يتحكم في إنتاجه عدة عمليات لغوية ونفسية واجتماعية ومعرفية، تشكل من الأجزاء وحدة منسجمة قائمة على قواعد تركيبية ودلالية وتداولية معا، ويؤدي الفصل بين هذه القواعد أو تجاهل جزء منها إلى خلل حتمي في التفسير.

وبعد، فإن (البنية النصية إذن بنية معقدة ذات أبعاد أفقية وتدرج هرمي، تحتاج إلى ذلك الخليط المتكامل من علم النحو وعلم الدلالة وعلم التداولية، الذي اختص علم لغة النص بالقدرة على استيعابه، إذ إنه علم يجمع شتات الجزئيات المبعثرة في فروع معرفية مختلفة في إطار نظرية متكاملة)<sup>5</sup> وهو ما اعتمده فاندايك في نظريات وتحليلاته للنصوص.

لقد انطلق فاندايك من مصادر متنوعة ومختلفة (ترجع إلى علوم اللغة والاجتماع والنفس والمعرفة والمنطق وغيرها... وقد اعتمد على أسس دلالية منطقية من شرح عمليات الترابط النحوي بين المتتاليات النصية، والتماسك الدلالي بين الوحدات الكبرى، بالإضافة إلى عدد من المعلومات النحوية التقليدية المستقاة من اتجاهات مختلفة، وعلى أسس معرفية ونفسية في تحديد القارئ وعملية الفهم واسترجاع المعلومات والتذكر وغير ذلك، وعلى أسس تداولية واجتماعية تصل بين الأبنية والاستعمالات والسياقات، وتكشف عن أشكال العلاقات بينها بصورة دقيقة)<sup>6</sup>.

وهذا ما يدعو إليه علم لسانيات النص الذي تجاوز التصور التقليدي في تعامله مع النص (فلم يعد يقتصر على مجرد تنظيم

الحقائق اللغوية فحسب، أو بعبارة أكثر دقة، لم يعد يعنى بالمستويات اللغوية الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية من خلال وصف ظواهر كل مستوى وتحليلها في إطار مناهج تتسم بموضوعية مرنة، وإنما تعدت مهمته إلى الاهتمام بالاتصال اللغوي وأطرافه وشروطه وقواعده وخواصه وآثاره، وأشكال التفاعل، ومستويات الاستخدام، وأوجه التأثير التي تحققها الأشكال النصية في المتلقي، وأنواع المتلقين وصور التلقي، وانفتاح النص وتعدد قراءاته<sup>7</sup> فحقق ما يسمى التكامل المتكامل.

إن استمرار التجدد المعرفي، واختلاف المعارف والمعلومات التي يكتسبها الإنسان في مراحل مختلفة تجعله يتجاوز الإطار التفسيري السابق، ويقدم عدة قراءات جديدة لا يلفظها النص الجيد. فإعادة الفهم لا تعني بأية حال من الأحوال إشارة إلى فهم سابق خاطئ، ولكنها تدل - على تجدد تجارب المرء واختلاف نظراته - دلالة واضحة.

إن لتجدد المعارف وتكاملها مع بعضها، يضيفي إلى إغناء المنهج الذي به نحلل، والنص الذي نقرأ، ولا يمكن أن يتأتى هذا إلا عبر التفاعل الإيجابي بين النص والمتلقي؛ ذلك أن تفسير النص يحتاج إلى معرفة عريضة شاملة، وإذا كانت الاتجاهات النصية تعنى بالبحث عن منهج تلقي القارئ للنص، فإنها تختلف فيما بينها في كفايات التلقي وأدواته وأهدافه.

**مصادر ومراجع البحث**

1. سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، 115، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، 2004، القاهرة.
2. السابق، 141.
3. عبد الله الغدامي، الخطيئة والتكفير، 14. من البنيوية إلى التشريحية، ط3/1993، دار سعاد الصباح، الكويت.
4. عيد حسن بحيري، علم لغة النص، 154.
5. السابق، 112 - 113.
6. السابق، 117.
7. السابق، 140.